مشاهير فقهاء مشذالة
تراجمهم ومكانتهم العلمية

بقلم د/سلطاني الجيلالي

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد، فإن من يطلع على كتب الطبقات والأعلام المترجمة لعلماء بلاد زواوة، يقف على أسماء مشذالية لامعة في عالم الفقه المالكي، يشهد لها أهل المغرب والمشرق بالعلم والإمامة والتفرد بمعرفة المذهب، ويتساءل عن هذه النسبة المشذالية، بل قل عن هذا الحيز المكاني الذي أنجب مثل هؤلاء الأعلام العلماء المشذاليين، فيتصفح كتب الجغرافية ومؤلفات أخبار الآفاق والأقطار، باحثا عن مشذالة كبلدة لها أوصاف وأخبار، فيسأل الإدريسي والبكري والحميري وابن حوقل وغيرهم، فلا يجد إجابة ترضي مطلبه أو تصريحا يقضي مأربه، فيعود ثانية إلى كتب التراجم والطبقات، التي ترجمت لأعلام هذه المنطقة، يقرأ في متنها وهامشها، فلا يقف إلا على هذه الأخبار الموجزة، مشذالة: " قبيلة تقع بين بجاية والجزائر "، أو هي " قبيلة من قبائل زواوة "، أو هي " إحدى قرى بجاية، أو هي بطن من بطون زواوة " أو هي " نسبة لقبيلة من زواوة " .

من هنا يتبدى للباحث أن إهمال الجغرافيين أو إقصائهم لهذه القبيلة من مؤلفاتهم خصوصا ما تعلق بوصف عرضها وطولها، لم يحرمنا فقط

بالمعلومات الجغرافية، بل كان من الأسباب التي أخلطت أوراق نسب الأعلام وانتمائهم المكاني والإقليمي، لأن عدم معرفة الحدود لأرض المنطقة كثيرا ما يجعل الانتماء والنسب للجهة أو البطن يغلب عليه المحيط العام أو المكان المعروف والمشهور جغرافيا، وهذا في رأيي ما أدى إلى ضياع بل إلى حرمان نسبة الكثير من الأعلام إلى مشذالة، لأن من يعود إلى كتب التراجم والمعاجم ككتاب عنوان الدراية للغبريني، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج للتنبكتي، والضوء اللامع للسخاوي، ومعجم أعلام الجزائر لعادل نويهض، يقف على هذا الجم الغفير من العلماء المنسوبين إلى زواوة وبجاية، مما يؤكد للباحث أن النسبة الزواوية البجائية، كانت هي النسبة العامة الغالبة على كل أعلام المنطقة، وهو أمر ـــ كما ذكرت ـــ حرم النسبة الأصلية لكثير من العلماء الذين ولدوا في أحواز بجاية أو في قرى ومدن بلاد زواوة أو ولدوا في مشذالة .

من ههنا أيضا، أجد المسؤولية في هذا الاتجاه ملقاة على عاتق باحثي أبناء هذه المنطقة أولا، وعلى الباحثين الغيورين على تراث أسلافهم ثانيا، وهي مسؤولية نفض الغبار وإماطة اللثام عن علمائنا وما أنتجوه من تراث في مختلف العلوم والفنون، وذلك من خلال وضع معاجم وفهارس لأعلام مدننا الجزائرية عبر مراحلها التاريخية المختلفة كخطوة أولى، تتلوها خطوات تأليف معجم أعلام الجزائر .

ومن هذا المنطلق، لم أجد بدا من أن أوسم بحثي ب " مشاهير فقهاء مشذالة " مكتفيا بالنسب المشذالي كما قرره المترجمون لهم، ذاكرا إياهم حسب وفياتهم، مقلدا في ذلك منهج بعض علمائنا من السلف، مكتفيا بخمسة منهم حسب ما يتطلبه البحث العلمي في هذا الاتجاه.

(1) منصور بن عبد الحق المشذالي البجائي (631 ـ 731 هـ)

هو الفقيه أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشذالي، من أكابر فقهاء المالكية، نشأ في بجاية وبها تعلم [1]، ثم رحل إلى المشرق وأقام فيه نحوا من عشرين سنة ولقي جماعة من أفاضل العلماء، فأخذ عنهم كالشيخ عز الدين بن عبد السلام، والشيخ صدر الدين سليمان الحفني، وشرف الدين بن السبكي، وشمس الدين الأصبهاني، قرأ عليهم وتثقف على أيديهم وحصل له علم بالفقه وأصول الفقه وأصول الدين، وصفه الغبريني فقال: " الشيخ الفقيه المحصل المتقن المجيد .. من أصحابنا ومعاصرينا في الوقت ..، له مشاركة في علم المنطق، وعلم العربية، وكل هذه تقرأ عليه، ودروسه حسنة منقحة، وله عبارة جيدة، وهو كثير البحث، ومحبته في البحث أكثر من محبته في النقل، ويتكلم على تفسير كتاب الله تعالى وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجيد، وهو من أهل الشورى وأهل الفتيا .. " [2]، يستشف من هذا الوصف الذي وصفه به الغبريني ـــ وهو المعاصر له ـــ أن أبا علي منصور المشذالي، بالإضافة إلى تبرزه في الفقه كان مشاركا في المنطق عالما بالعربية، مفسرا للقرآن الكريم ومحدثا، ولمكانته العلمية صار من أهل الشورى وأهل الفتيا.

ويؤكد وصف الغبريني لأبي علي أيضا التجيبي في رحلته إذ يقول: " لقيت ببجاية الشيخ الفقيه الإمام، أوحد الفضلاء الأعلام أبا علي منصور الزواوي المشذالي وآخر رجالات الكمال بأفريقيا والمغرب الأقصى، ممن جمع بين معرفة الفقه وأصوله، وأحكم حظا وافرا من العربية وحصل المنطق والجدل وغيرهما، وحاز السبق في علوم كثيرة، واستبحر فيها وتكلم في أنواعها، وناظر في جميعها، وتفنن في المعارف كلها، وليس على الله بمستنكر

أن يجمع العالم في واحد"[3] . ومن الذين التقوا بأبي علي المشذالي، العبدري إذ يذكره في رحلته فيقول: "رأيت بملالة الفقيه أبا علي منصور المشذالي، ومشذالة قبيلة من زواوة ويلقب بناصر الدين، رحل للمشرق قديما فقرأ به الأصول والفروع دراسة وتفقها، وله منها حظ وافر ..." [4] .

وأطراه تلميذه الشيخ منصور بن علي بن عبد الله الزواوي بما نصه: " شيخنا ناصر الدين هو الإمام المجتهد علم الأعلام وقطب الفقهاء وقدوة النظار وإمام الأمصار" [5] .

وعلى الجملة فإن الشيخ ناصر الدين كان كما يصفه التنبكتي في نيل الابتهاج، مطلعا على مذاهب الأئمة، منفردا بمعرفته لمذهب مالك مقيما بتقربه ونصرته، يصور ويحرر ويمهد ويقرر ويرجح، مع ثقوب ذهن وصحة استنباط وفهم [6] .

وعلى ما يبدو فإن اضطلاع ناصر الدين بمهمة التدريس والتلقين، وانغماسه في البحث، وكثرة اطلاعه لكتب الأقدمين والمتأخرين، شغله كل ذلك عن التأليف، فقد ذكر له الغبريني شرحا واحدا على رسالة أبي محمد بن أبي زيد، وهو شرح لم يستكمله، وختم ترجمته له بقوله: " وهو ممن ينفع بالأخذ عنه والسماع عنه " [7]، وقال عنه ابن خلدون " رجع إلى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد، ونزل بجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها " [8]، وتوفي عام إحدى وثلاثين وسبعمائة وعمره مئة سنة .

2 عمران بن موسى المشذالي (670 ــ 745 هـ)

هو عمران بن يوسف المشذالي البجائي أبو موسى، صهر أبي علي ناصر الدين المشذالي [9]، نشأ في بجاية وبها تعلم، ثم انتقل إلى الجزائر معلما ومدرسا، ولسمعته العلمية ومكانته التعليمية، بعث في طلبه صاحب

تلمسان أبو تاشفين، فنزل عند رغبته ورحل إليه، فأنزله من التقريب والأحسان بالمحل المكين، فدرس بتلمسان الحديث والفقه والأصلين والنحو والمنطق والجدل والفرائض، فكـــان كما يذكر ـــ تلميذه المقري ـــ كثير الاتساع في الفقه والجدل، مديد الباع فيما سواهما مما ذكر [10] .

وعلى ما يبدو، فإن المقري كان معجبـــا بشيخه عمران ملازما له، هذ الأخير الذي كان الوحيد ـــ في حدود ما أعلم ـــ من الفقهاء المشذاليين الذين أفرد لهم المقري ترجمة في كتابه النفح، وما يؤكد إعجاب المقري بأبي موسى هو ملاحظته له حين دخوله المسجد وقت الصلاة، وما ذكره في مؤلفه من أسئلة وجهها له، وما أورده فيه من منازعات فقهية بين أبي موسى وفقهاء عصره كانت تدور في مجلس تاشفين، من ذلك ما ذكره أنه كان يرى الشيخ عمران إذا دخل المسجد بعد المغرب قبل الإقامة يثبت قائما إلى أن تقام الصلاة، والمعروف ـــ كما يقول المقري ـــ أن يركع الداخل لانتهاء وقت المنع بالغروب، وأن شيخه كان لا يفعل ذلك، ومن المنـــازعات التي كانت تقع في مجلس تاشفين، منازعة أبي موسى لأبي زيد بن الإمام، هذا الأخير الذي قال بتقليد ابن القاسم لمالك، وهو قول رده أبو موسى وادعى بأنه مطلق الاجتهاد، واحتج بمخالفته لمالك في **كثير** [11] .

إن ملاحظة المقري ومراقبته لشيخه في أمور العبادات، ومناصرته له في الخلافيات، ليؤكد إعجاب التلميذ بشيخه، وليؤكد في الوقت نفسه أيضا روح التجديد في الفقه المالكي التي حمل لواءها أبو موسى وأراد بها إخراج هذا الفقه من قوقعته التي جعلته حبيس فروعه منذ عصر الدولة المرابطية .

وخوض أبي موسى في الخلافيات وغيرها، دليل على كثرة اتساعه في الفقه والجدل، فهو كما وصفه صاحب شجرة النور الزكية: "الفقيه الحافظ

العالم الكبير المحقق العمدة الشهير "، له من المؤلفات رسالة في اتخاذ الركاب من خالص الفضة، و" فتاوي " كثيرة نقل الكثير منها الونشريسي في معياره ،كان مولده سنة 670 هـ وتوفي سنة 745 هـ [12].

(3) محمد بن محمد بن أبي القاسم المشذالي (821 أو 822 ـ 865هـ)

هو محمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الصمد بن حسن بن عبد المحسن أبو الفضل المشذالي الزواوي البجائي، يعرف في المشرق بأبي الفضل وفي المغرب بابن أبي القاسم وأبي القاسم، ولد في بجاية وبها أخذ عن والده وغيره، حفظ القرآن الكريم في السنة السابعة من عمره، وبعدها حفظ الشاطبتين، ورجز الخرازي في الرسم، والكافية الشافية، ولامية الأفعال لابن مالك في النحو والصرف ...، والرسالة وأرجوزة التلمساني في الفرائض، وطوالع الأنوار في أصول الدين للبيضاوي، وابن الحاجب الأصلي، وجمل الخونجي، والخزرجية في العروض، وتلخيص ابن البنا في الحساب، وتلخيص المفتاح، ومجموعة من دواوين الشعراء الجاهليين وغير ذلك مما ذكره السخاوي [13] . وعلى الجملة كما وصفه الشيخ محمد بن محمد مخلوف، كان أبو الفضل: " أحد أذكياء العالم نادرة الزمان في الحفظ والإتقان .. " [14] .

رحل أبو الفضل إلى تلمسان في أول سنة أربعين، فأخذ عن محمد بن مرزوق، وأبي القاسم بن سعيد العقباني، وأبي الفضل بن الإمام، وأبي العباس بن زاغو، وأبي عبد الله محمد بن النجار، ثم عاد إلى بجاية في سنة أربع وأربعين، وقد برع في العلوم، واتسعت معارفه، وبرز على أقرانه بل على مشايخه، يؤكد هذا الكلام ما كتبه ابن مرزوق لوالد أبي الفضل ما نصه: "

قدم علينا ـــ أي أبو الفضل ـــ وكنا نظن به حاجة إلينا فاحتجنا إليه أكثر "، وفي رواية أخرى، أن ابن مرزوق قال ما عرفت العلم حتى قدم علي هذا الشاب، فقيل كيف ؟ قال لأني كنت أقول فيسلم كلامي، فلما جاء هذا شرع ينازعني فشرعت أتحرز وانفتحت لي أبوابٌ من العلم والمعارف [15] .

وفي بجاية تصدر أبو الفضل في جوامعها للتدريس والتعليم [16]، ومن بجاية رحل إلى تونس ومنها إلى بلاد المشرق، فزار القاهرة وبيروت ودمشق وطوف في بلاد الشام، ثم سكن القدس مدة، وحج سنة تسع وأربعين وجاور مكة المكرمة، ثم رجع إلى القاهرة، حيث لقي بها الإمام السخاوي الذي خصه بترجمة وافية في كتابه الضوء اللامع .

وبالقاهرة درس الناس في عدة فنون، فبهر العقول وأدهش الألباب، ويصف السخاوي طريقته في التدريس فيقول: إنه كان "يقرأ القارئ بين يديه ورقة أو أكثر، ثم يسرد ما تتضمنه من تصوير المسـائل، ويستوفي كلام أهل المذهب إن كان فقها، وكلام الشارحين إن كان غير ذلك، ثم يتبع ذلك بأبحاث تتعلق بتلك المسائل، كل ذلك في أسلوب غريب ونمط عجيب، بعبارة جزلة وطلاقة كأنها السيل وتحرز بديع، بحيث يكون جهد الفاضل البحاث عند غيره أن يفهم ما يلقيه، ويدرك بعض إدراك ما يجليه ... وكان الطلبة يقولون له تنزل لنا في العبارة، فإنا لا نفهم جميع ما تقول، فقال شيئا يكاد أن يكون كشفا، لا تنزلوني إليكم ودعوني أرقيكم إلي، فبعد كذا وكذا لمدة حدها تصيرون إلى فهم كلامي فكان الأمر كما قال "، وترك أبو الفضل مؤلفات منها : " شرح على جمل الخونجي " [17] .

وعلى الجملة، فقد كان أبو الفضل نادرة العصر وأعجوبة الزمان، غاية في جودة الذهن وسرعة الإدراك وقوة الحافظة، توفي غريبا في عنتاب في

شمال سورية سنة 865 هـ وعمره ثلاث أوأربع وأربعون، وإننا لنتساءل عن هذه الشخصية النادرة أو قل هذه الأعجوبة الزمانية، ماذا كانت ستضيف للإسلام والمسلمين لو قدر لها أن عاشت وعمرت طويلا، فإننا نجيب كما أجاب أستاذه ابن مرزوق " إن عاش كان عالم المسلمين " [18] .

(4) محمد بن أبي القاسم المشذالي (ت 866 هـ)

هو محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الصمد بن الحسن بن عبد المحسن أبو عبد الله المشذالي، علامة بجاية وفقيهها وإمامها وخطيبها ومفتيها وصالحها ومحققها، والد أبي الفضل محمد وأخيه عبد الله، أخذ عن أبيه بل ترافق معه في بعض شيوخه، وصفه السخاوي فقال: " كان إماما كبيرا مقدما على أهل عصره في الفقه وغيره، ذا وجاهة عند صاحب تونس ... أم وخطب بالجامع الأعظم ببجاية وتصدر فيه وفي غيره للتدريس والإفتاء، وتخرج به ابناه وأئمة" [19] ولمكانته العلمية وما بلغه من ديانة وقوة نفس كان يضرب به المثل حيث يقال: أتريد أن تكون مثل أبي عبد الله المشذالي . توفي أبو عبد الله سنة ست وستين وثمانمائة.

ترك مؤلفات منها " تكملة حاشية الوانوغي على المدونة " في فقه المالكية، و" مختصر البيان لابن رشد " قال عنه التنبكتي: "رتبه على مسائل ابن الحاجب وجعله شرحا له، أسقط التكرار منه، ورد كل مسألة إلى موضعها من الإحالات، فجاءت في غاية الإتقان والتيسير، وترك من مسائله مالا تعلق له أصلا بكلام ابن الحاجب ولا يقرب إليه بوجه، فجاء في أربعة أسفار في مقدار تسعين كراسا "، وله أيضا " مختصر أبحاث ابن عرفة " المتعلقة بكلام ابن شاش وابن الحاجب وهو في مجلد من القالب الكبير، و" فتاوي " نقلت في المعيار والمازونية [20] .

(5) بلقاسم بن محمد بن عبد الصمد المشذالي (القرن التاسع الهجري) هو بلقاسم بن محمد بن عبد الصمد الزواوي المشذالي البجائي، والد العلامة محمد بن أبي القاسم المذكور آنفا، من أكابر فقهاء المالكية ترجم له التنبكتي فأخبر بأنه أخذ العلم عن أحمد بن عيسى وعبد الرحمن الوغليسي وغيرهما، وأخذ عنه الإمام أبو زيد الثعالبي، وكان موصوفا بحفظ المذهب، وهو في بجاية كالبرزلي بتونس، انتفع به جماعة منهم ولده الإمام العلامة محمد بن بلقاسم المشذالي (21) .

وخلاصة القول فإن ما ذكرته من أعلام، يعتبر غيضا من فيض، وما لا يدرك كله لا يترك جله، وإن ما تركوه من آثار فقهية ومؤلفات أخرى دينية وعقلية، لشاهد علمي على نشاط علماء هذه المنطقة خصوصا في مجال الفقه المالكي، فقه مذهب أهل الجماعة بالمغرب الإسلامي، فلقد اعتنوا به تدريسا وتعليما وتأليفا واجتهادا، فأصبحوا بذلك أئمة نقلوا الأمانة بصدق إلى الأجيال اللاحقة.

المصادر والمراجع :

1 ــ معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض ص 195 منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر ،بيروت ط1 1971 م

2 ــ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني ص 200 ــ 201 تحقيق الأستاذ رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ط 2 1981 م، وينظر شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص 217 الشيخ محمد ابن محمد مخلوف، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (د . ت) .

3 ــ نيل الابتهاج بتطريز الدباج، أحمد باب التنبكتي ص 609، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية طرابلس ط 1 1989م .

4 ــ نيل الابتهاج ص 610 .

5 ــ نيل الابتهاج ص 610 .

6 ــ نيل الابتهاج ص 609 .

7 ــ عنوان الدراية ص 201 .

8 ــ موسوعة العلامة ابن خلدون، م 2 ص 773، دار الكتاب المصري، القاهرة ودار الكتاب اللبناني، بيروت 1999 م .

9 ــ نيل الابتهاج ص 350، وينظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري م 5 ص 223، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت 1988 م .

10 ــ نفح الطيب م 5 ص 223 .

11 ــ نفح الطيب م 5 ص 224 ،وينظر نيل الابتهاج ص 351 ــ 352

.

12 ــ شجرة النور الزكية ص 220، ومعجم أعلام الجزائر ص 136، ونيل الابتهاج ص 352 .

13 ــ ينظر الضوء اللامع م 5 ج 9 ص 180 ــ 181 .

14 ــ شجرة النور الزكية ص 263 .

15 ــ ينظر الضوء اللامع م 5 ج 9 ص 181 ــ 182 .

16 ــ نيل الابتهاج ص 538 .

17 ــ الضوء اللامع م 5 ج 9 ص 182 ــ 183 .

18 ــ ينظر الضوء اللامع ص 182، 185، 188 .

19 ــ الضوء اللامع م 4 ج 8 ص 290، وينظر نيل الابتهاج ص 538 .

20 ــ الضوء اللامع م 4 ج 8 ص 290، ونيل الابتهاج ص 539، والأعلام ص 175 .

21 ــ نيل الابتهاج ص 150 .